**مصير لبنان بين صراع الآلهة والصدمة الثقافيّة الخلاصيّة**

17-11-2020 | 00:00 **المصدر**: النهار

**الأب صلاح أبوجوده اليسوعيّ**

"إنّ التربية أمضى سلاح يمكن استخدامه لتغيير العالم"

**نيلسن مانديلا**

هل مكسَبا انتفاضة 17 تشرين الأوّل 2019 الأساسيّين: تجاوز اللبنانيّين أسباب الحرب الأهليّة، ورفضهم النهائيّ النظام الطائفيّ العقيم، وهميان أم واقعيّان؟ بعد انقضاء سنة على حدث 17 تشرين الأوّل، يرى المتشائمون أو مَن أملوا خيرًا بالانتفاضة، ومن ثمّ وقعوا فريسةً لليأس، أنّ الضغط الشعبيّ أخفق في إحداث تغيير أساسيّ في نظام البلاد، بل وحتّى في تحسين سلوك السياسيّين. ولهذا الإخفاق، في نظرهم، أسباب متعدّدة، منها أنّ الانتفاضة لم تتحوّل من حركة شعبيّة عفويّة وطنيّة إلى حركة سياسيّة تُقدِّم بدائلَ عن الأحزاب الطائفيّة والنظام الطائفيّ، ونجاح الأحزاب الطائفيّة والتحالفات السياسيّة التقليديّة في اختراق أوساط الحراك الشعبيّ، ولجوء السلطة إلى أساليب القمع والترهيب لإفشال وسائل الضغط الشعبيّ. وإزاء هذا الواقع، لا ترى هذه الفئة من المواطنين أنّ الانتفاضة قد حقَّقت بالفعل هذَين المكسبين؛ إذ إنّ احتمال تقاتل اللبنانيّين على أساس طائفيّ يبقى قائمًا، ما دام السياسيّون التقليديّون هم مَن يمكسون بصناعة القرار، ويُظهرون التصاق النظام الطائفيّ بالدولة نفسها.

وفي المقابل، يرى المتمسّكون بإنجازات الانتفاضة، أنّ ما تجلّى في 17 تشرين الأوّل إنْ هو إلاّ وعي لبنانيّ شامل لا طائفيّ تجاوز كلّ الحواجز الطائفيّة النفسيّة الناتجة من الحرب الأهليّة وسياسات زمن الوصاية السوريّة، فضلاً عن أنّ هذا الوعي، في الوقت عينه، قد عبَّر عن رغبة اللبنانيّين الجامحة في إقامة دولة ديموقراطيّة تحترم الحريّات، وتعمل من أجل خير اللبنانيّين بشفافيّة وفعّاليّة من دون تمييز بين لبنانيّ وآخر على أساس طائفيّ، وإنْ لم تُترجم هذه الرغبة في برنامج سياسيّ. لذا، فبالرغم من استمرار الحالة الطائفيّة وتحكّم الطائفيّين بصناعة القرار، وتفاقم الأزمات المعيشيّة والسياسيّة، فإنّ الانتفاضة ظهّرت ثمّة رابطًا اجتماعيًّا جديدًا غير طائفيّ لا يمكن تجاهله، وثبَّتت موقف شريحة كبيرة من اللبنانيّين الرافض النظام الطائفيّ والسياسيّين الطائفيّين، على نحوٍ نهائيّ لا مساومة عليه.

Volume 0%

في وسط هذا المشهد الضبابيّ الذي يتراوح بين التشاؤم والتفاؤل الحذر، تبقى القدرة على تعبئة اللبنانيّين من أجل متابعة مسار الانتفاضة التغيريّ، أو، على الأقلّ، القدرة على إبقاء نبض الانتفاضة حيًّا، مسألة حيويّة، لأنّ النجاح في هذا المضمار، في نظر أنصار الانتفاضة، برهان على متانة مكسبَي الانتفاضة. أمّا الفشل فيعني، في نظر خصوم الانتفاضة، طابع المكسبَين الظرفيّ أو السطحيّ. ولكن، من دون تهميش هذا العامل البرغماتيّ أو نكرانه، من الضروريّ إبراز ما يكوِّن نواةَ التغيير الصلبة التي كان لها دورها الكبير في حدث الانتفاضة، والتي هي في أساس إحداث تغييرٍ في طبيعة العلاقات من طائفيّة إلى سياسيّة. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه النواة بحد ذاتها تجعل من المطالبة بالتغيير أمرًا لا رجعة فيه، إذ إنّها تُدخل عنصرًا ثقافيًّا جديدًا في المشهد السياسيّ والاجتماعيّ، يختلف عن الثقافة الطائفيّة الطاغية، بصرف النظر عن مصير الانتفاضة.

من المسلَّم به أنّ الشبيبة كانت عصب الانتفاضة ونبضها. وبقدر ما أنّ تلك الشبيبة قد تحرّكت عفويًّا بدافع رفض الفساد ولامبالاة المسؤولين السياسيّين إزاء معالجة الأوضاع المعيشيّة، فإنّ شعاراتها في بدايات الحراك والروح التي سادتها، كانت بعيدةً كلّ البعد عن الشعارات التقليديّة التي طالما رُفعت للتعبير عن وحدة اللبنانيّين التوافقيّة أو الميثاقيّة. وهي هذه الظاهرة بالذات التي جعلت الكثيرين يقولون إنّ اللبنانيّين، في 17 تشرين الأوّل، قد تجاوزوا أسباب الحرب الأهليّة. لقد تجلّى في ذلك الحدث ذهنيّة جديدة تميّز الشبيبة في لبنان. ولكن ما هي خلفيّة هذه الذهنيّة؟ في ظلّ غياب سياسة حكوميّة تهدف إلى إحياء ذكريات الحروب التي عانى منها لبنان بغية تعزيز رموز الدولة، وبثّ روح وطنيّة واحدة، وإحداث صدمة إيجابيّة في وجه كلّ شكل من أشكال العنف من خلال إبراز نتائج الحروب الكارثيّة، فإنّ الحقل التربويّ الحديث يبدو مكوِّن هذه الذهنيّة بامتياز. فإنّ الفلسفة التربويّة الحديثة التي تتميّز بها مؤسّسات مدرسيّة وجامعيّة رائدة في لبنان، وتراكم نتائج خبراتها طوال عقود، تُعطي ثمارها.

تتعارض هذه الفلسفة بعمق مع منطق النظام الطائفيّ ومجتمعه التقليديّ الذي طالما فُهم فسيفساء طوائف. فإنّ تلك الفلسفة تندرج في رؤية تطوّريّة للتربية، أي غير جامدة، تتّخذ من تنمية الإنسان بصفته فردًا، في مختلف الحقول الإنسانيّة والروحيّة والأخلاقيّة والعلميّة – وليس العلميّة وحدها- هدفها الرئيسيّ؛ فتنشّئه على دوره في المجتمع من خلال احترام حقوق الإنسان، وبوجه خاصّ كرامة الإنسان، وتزرع فيه مبادئ الديموقراطيّة والحريّة المسؤولة.

بفضل هذه الفلسفة التربويّة، لم يعد اللبنانيّ مجرّد رقم يُدرج في إطار جماعة طائفيّة رغمًا عنه، جماعة تُعيِّن له صديقه وعدوَّه. وما عاد يقبل أن يرى نفسه مجرّد رقم ضمن جمهورٍ يجعله يظنّ أنّ حياته ثانويّة بالقياس على مصالح جماعته التي يحدِّدها زعماؤها والتي تستحقّ أن يضحّي في سبيلها. بفضل تلك الفلسفة، ما عاد اللبنانيّ يقبل أن يعامله مواطنوه انطلاقًا من أحكام مسبقة وأفكار نمطيّة بسبب ولادته في طائفة معيّنة. لقد أيقن أنّ كرامته فضيلة يستمدّها، لا من انتمائه إلى دينٍ أو جماعة طائفيّة أو عرقيّة بل إلى الإنسانيّة. وفهم أنّ بلاده، مثل دينه، ضحيّة الطائفيّة. لذا، تراه يطالب بأن يكون، في الوقت عينه، فردًا مستقلاًّ ومواطنًا يمنح ولاءه وطنه وحده؛ وتجده ينفر من دينٍ تحوّل إلى مجرّد هويّة اجتماعيّة وسياسيّة، وأصبحت طقوسه ومصطلحاته، في الوقت عينه، عبادةً لله وخدمة لمصالح فئويّة. لقد أيقن أنّ دينه قبل كلّ شيء احترام لفرادته وفرادة الآخر، ودعوة إلى علاقة شخصيّة فريدة بخالقه مَن هو وحده يعطيه الجواب عن سرّ حياته.

تستمرّ هذه الفلسفة التربويّة التطوريّة في إرساء أسس ثقافة انعتاق جديدة، تخلق تدريجيًّا انقطاعًا مع النموذج الجمعويّ الطائفيّ التقليديّ الذي يُخضع الفرد. إنّ اللبنانيّ يزداد حريّة في تقرير مستقبله، واختيار قضيّته في الحياة، وينمّي قدرته على التصرّف تبعًا لقناعاته وضميره، فينسج بذلك رابطًا اجتماعيًّا جديدًا سياسيّ الطابع. وهو هذا التغيير الثقافيّ العميق والغنيّ الذي يكشف عن إفلاس النظام الطائفيّ والممسكين به، نظام يتّسم بالفقر الثقافيّ والوطنيّ، ويُغرق البلاد في سلسلة أزماتٍ لا تنتهي، ويفرض منطق الجماعة الذي يستعبد الإنسان، ويقدّم ذاته طريقًا وحيدًا لترتيب الحياة السياسيّة والاجتماعيّة. كتب الروائيّ ميلان كُونديرا: "إنّ الثقافة ذاكرة الشعب؛ إنّها الوعي الجماعيّ للاستمراريّة التاريخيّة، وطريقة تفكير وأسلوب حياة". تُعبِّر هذه الكلمات خير تعبير عن دور الثقافة التي تنتشر في أوساط شبيبة لبنان، وتُرسي أسس لبنان الجديد بفضل مؤسّسات تربويّة تبنّت الفلسفة التربويّة الحديثة، وإن من خلال إحداث صدمة ثقافيّة. لنأمل ألاّ تثور عليها آلهة النظام القديم وتسعى لطمسها.